

نَحْنُ نَقْصُّ عَلَيْكَ
سلسلة أعظم القصص ١٤٤٢ هـ

رفع القواعد

قصة إبراهيم عليه السلام



جاءت هذه القصة بعد سلسلة متعاقبة من الابتلاءات
لبنينا إبراهيم عليه السلام لتأتي موقع الشاهد من الدليل
لما كان عليه إبراهيم من شدة المسارعة لرضى ربه والتسليم
بقضائه في كل اختبار ابتلي به ومن أعظم الابتلاءات ما
حدث له في وادي مكة : أخرج البخاري (٤٦٣٣) قال :
وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا
مَعْمَرٌ، عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ، وَكَثِيرِ بْنِ كَثِيرِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ
أَبِي وَدَاعَةَ، يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطِقَ مِنْ قَبْلِ أُمَّ
إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطِقًا لِتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ، ثُمَّ جَاءَ
بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهَا
عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ

رفع القواعد:

بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهَا هُنَالِكَ،
وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى
إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ
تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا هَذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا
شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا،
فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذْنًا لَا
يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَاَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ
الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا
بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ ﴿ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ
ذُرِّيَّتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم: ٧٣]
- حَتَّى بَلَغَ - {يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٧٣]"

وفي رواية عمر بن شبة في "كتاب مكة" من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير: أنها نادته ثلاثاً فأجابها في الثالثة، فقالت: له من أمرك بهذا؟ قال الله، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت إلى موضع الكعبة».

«فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهِؤَلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٧٣-٨٣].

قلت: هذا المشهد أول مشهد إيماني في بيت الله الحرام سُجِّلَ لنا تسليماً إبراهيم وانقياده، ويقين هاجر عليهما السلام. قال بعض المفسرين: «لقد استغنت بالخالق عن المخلوق، ولم تنطق مثل هذا القول إلا بتوفيق من الله».

قولها: "يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا هَذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟": قال العيني: «لأنها كانت وحدها وإسماعيل صغير، والوحشة متمكنة». حيث كان طريق الأسباب معطلاً، فلا ماء، ولا نبات، ولا إنسان، فهاجر وابنها حسب الأسباب الظاهرة هالكان لا محالة.

"فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا": قال بعض المفسرين: «خشي إبراهيم أن يلتفت بوجهه فيلتفت قلبه عما أمر به»، فيمم وجهه حيث أمر، قال القسطلاني:

رفع القواعد:



والثنية : موضع بأعلى مكة، وقف فيه إبراهيم عليه السلام منزويا عن هاجر وابنها منفرداً بربه مستقبلاً القبلة رافعاً يديه داعياً، قال ابن عاشور : «جملته ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ مستأنفة لابتداء دعاء آخر، وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع».

﴿بِوَادٍ﴾ الواد الأرض بين الجبال، وهو وادي مكة. ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ صفة، أي: بواد لا يصلح للنبت لأنه حجارة، فإن كلمة "ذو" تدل على التصاق ما أضيفت إليه وتمكنه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمال ثابت له، وإذا أريد ضد ذلك، قيل: "غير ذي"، كقوله تعالى: ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عَوْجٍ﴾ أي لا يعتره شيء من العوج، ولأجل هذا الاستعمال لم يقل بواد لا يزرع أو لا زرع به، قال ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي غير ذي ماء، فليس فيه نبتة زرع، وعندما يغيب الماء عن أم ووليدها، فماذا يكون حالهما؟

رفع القواعد:

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ علق "ليقيموا" ب"أسكنت"، أي علة الإسكان بذلك الوادي عند ذلك البيت أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معموراً بدأ قال الشيخ السعدي : «لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية فمن أقامها كان مقيماً لدينه».

﴿فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال الشوكاني : «ومعنى تهوي إليهم: تنزع إليهم، يقال: الناقة تهوي هويماً فهي هاوية إذا عدت عدواً شديداً كأنها تهوي في بئر»، والمراد فاجعل أناساً يهون إليهم، قال ابن عاشور : «فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد». أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه، والمقصود من هذا

إبراهيم من وجده بإسماعيل وأمه وما يعلنه من ذلك،
ومجيء الضمير بنون الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد
نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، ﴿وَمَا يُخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال جمهور المفسرين: هو
من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم من أنه
سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه.

« وَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ
ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا نَفَدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ
ابْنُهَا، وَجَعَلْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ،
فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَّةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ
جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ
الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ

الدعاء تأنيس مكانهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم
منهم.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ قال في التفسير
المنير: «إنما طلب تيسير المنافع لأولادها لأجل أن
يتفرغوا لإقامة الصلاة، وأداء الواجبات»، قال العيني:
«فقبل الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار،
لعلهم يشكرون النعمة».

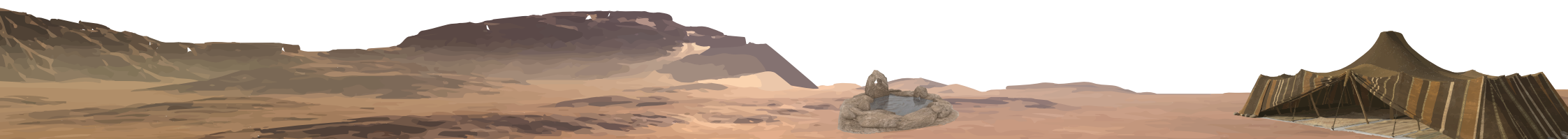
﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ قال ابن عطية: «وهذه
من الآيات المعلمة أن علم الله تعالى بالأشياء هو على
التفصيل التام». ومقصد إبراهيم عليه السلام الاختصار في
الدعاء، والتفويض إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على
هداية بنيته والرفق بهم، وقيل: المراد ما يخفيه

رفع القواعد:

رفع القواعد:

مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَّ رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا،
ثُمَّ سَعَتْ سَعِيَّ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِيَّ، ثُمَّ
أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ
أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ
: فَذَلِكَ سَعِيَّ النَّاسِ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ
صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا -، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ
أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ
بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ،
حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا،
وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا
تَغْرِفُ. فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا،

فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ،
يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، ...
حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ
جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَزَلُّوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ
فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ كِيدُورٌ عَلَى مَاءٍ،
لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِيَّ وَمَا فِيهِ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ فَإِذَا
هُم بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ
إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ ...
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ: فَالْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ
مُحِبُّ الْإِنْسِ».



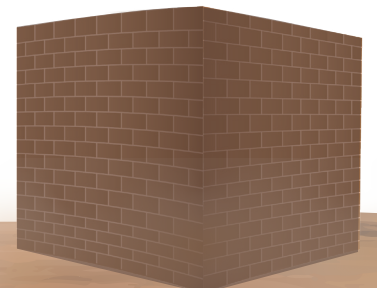
أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ
أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا
حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ
إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ
الْبِنَاءُ، وَضَعَفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ
الْمَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا
مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ
رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٧٢١-٩٢١].

وبعد أن رأى الله عز وجل وهو العليم سبحانه إيمان
إبراهيم عليه السلام بالتسليم وسرعة امتثاله لأمره،
وحسن توكل هاجر ويقينها بولايته، وحققة صبرهما على
ما امتحنا به من ابتلاء، جازاهما بأعظم كرامات الدنيا
وخلد أثرهما على امتداد تاريخ البشرية، قال ابن
باديس: «كان هذا من حسن جزاء الله لهم على ذلك من
البرِّ المعجل، والأثر الخالد، والذكر الباقي، والثواب المدخر
الجزيل، وفي ذلك كله آيات لكل صبار شكور».

يقول البخاري: «... ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَكَّةَ
وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ رَمْزٍ، فَلَمَّا رَأَاهُ
قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ
قَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا

رفع القواعد:



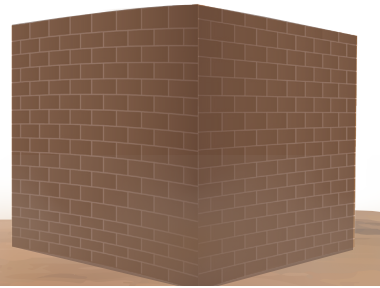
وقد استجاب الله عز وجل دعوة نبيه في المسلمين من العرب الذين تلاحقوا بالإسلام قبل الهجرة وبعدها حتى أسلم كل العرب إلا قبائل قليلة لا تنخرم بهم جامعة الأمة، قال ابن عاشور: «فكانت الكعبة قياماً لكل عربي إذا طرقه ضيم».

﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قال الشيخ السعدي: «أي: علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ. ويحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، ومعنى طلب أن يجعلها مسلمين مع كونها مسلمين هو طلب

والقواعد: جمع قاعدة، وهي أساس البناء الموالي للأرض والأصل لما فوقه، قال الزجاج: «القواعد: أساطين البناء التي تعمده». وعمل إبراهيم عليه السلام رفع تلك القواعد: إي إبرازها من الأرض والاعتلاء بها لتصير جداراً.

ومعنى هذا أن البيت الحرام كان موجوداً وإسماعيل طفل رضيع قبل أن يبنى إبراهيم عليه السلام قواعد الكعبة ولكن مكان البيت لم يكن ظاهراً للناس؛ فبين الله عز وجل مكان البيت لإبراهيم ليعرفه الناس ويعلمونه، قال الله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وهذا فضل عظيم اختص الله به نبيه عليه السلام، قال جمال الدين القاسمي: «وصيغة الاستقبال في حكاية البناء وهي حال ماضية؛ لاستحضار صورتها المهيبة».

رفع القواعد:



الزيادة في ما هما عليه من الإسلام وطلب الدوام عليه، ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود، وزيادة فيه.

قال ابن عطية : « واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام، وقيل وهو الأحسن عندي إنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أَرَادَا أَنْ يُسَنَّا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة». وقال الطبري : «إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معان يجب أن تكون أحسن مما هي».

رفع القواعد:

